٤ أيها المصرى من أنت؟

عندى خزائن الأرض: أطعمت الناس ونسيت نفسى!

د. حسين مؤنس

التحرير

كنا نحفظ ونحن صغار خطابا منسوبا إلى عمرو ابن العاص يقول فيه «إن مصر لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء.....» إلى آخر هذا الكلام المزوق المسجوع الذى نستبعد صدوره عن عمرو بن العاص فى خطابه إلى عمر بن الخطاب. لأن القوم كانوا صحابة فحولا، والصحابة والفحول لا يعرفون زخرف القول ولا يعجبهم تزويق الكلام. لأن السجع لغة الخلّيين، وهو يعجب العوام كما يقول شمس الدين القدسى فى فاتحة كتاب «أحسن التقاسيم»...

إنما الذى يليق برجل من طبقة عمرو بن العاص عبارة صادقة دات معنى فائما ورواها عنه عبد الرحمن بن عبد الحكم، قال «ولاية مصر جامعة لعمل الخلافة».

فهذه عبارة رصينة تجعل فيها حكمة الصحابى الفاتح الجليل عمرو بن العاص. لأن عمرا كان يعرف مصر وخيراتها ومكانتها قبل الإسلام، وهو رجل قرشى لبيب تاجر، يعرف أقدار البلاد. وهو عندما أشار على عمر أن يفتح مصر كان يعرف أنه يضيف إلى دولة الإسلام الناشئة إذ ذاك بلدا سيصبح من أركان القوة ودعائم دولة الإسلام. فقد كان فتح الشام إبعادا للروم - عن حدود جزيرة العرب، ثم جاء فتح مصر مؤيدا لفتح الشام، وقاضيا على كل أمل للروم، وهم البيزنطيون - فى الانقضاض من دولة الإسلام بالضغط كما كان فتح العراق إبعادا للفرس عن جزيرة العرب التام. ثم جاء فتح فارس لتوكيد فتح العراق وقضاء لا رجعة فيه على الفرس آل ساسان.

وبامتكمال فتح فارس فتحت للإسلام أبواب القارة الآسيوية يوغلون فيها كيف يشاءون ويقدرون، وبفتح مصر ملك العرب ناصية البحر المتوسط وفتحت أمامهم أبواب القارة الأفريقية يفتحون منها ما يشاءون وما يقدرون عليه. ولقد بلغ من جلالة فتح مصر وأهميته أن العرب استطاعوا منها الاستيلاء حتى بلغوا المحيط الأطلسى ثم قلب أفريقية الداخلية والاستيلاء فيما بعد، وبركبا أيضا عبر المسلمون إلى القارة الأوروبية، ففتحوا الأندلس وجنوب فرنسا، وأنشأوا لأنفسهم ملكا فى صميم الغرب الأوروبى بنى فكى الأسد، وملكوا نواصى البحر المتوسط ومفاتيحه.

إذا قال عمرو بن العاص إن ولاية مصر جامعة «أى كلها» لعمل الخلافة، فهذا كلام رجل فعل حكيم يعرف قدر الكلمة ويضعها فى محلها، أما اللؤلؤة البيضاء والزبرجدة الخضراء، فهذا كلام على القلب والمال الذى لا يستطيع من الأمر إلا رقشة الكلام.

وهم يرددون لنا تاريخ مصر فى الكتب التقليدية رواية دوايتة خالية من المعنى، لا نفهم معها لماذا كان لمصر فى تاريخ ممكلة الإسلام هذا الشأن كله. فهذا التاريخ عندهم دول، أتشأكلا منها رجل على هواه احتلس مصر من دولة الخلافة احتلاسا

فهذه دولة أنشأها أحمد بن طولون، قصر على أيامه طولونية، وتلك دولة أنشأها صعلوك يسمى محمد بن طغج الإخشيد، قصر فى أيامه إخشيدية، وهذه ثالثة أنشأها فى الغرب داعى يسمى نفسه إلى الدعوة النبوية، ولا يعرف أحد من أين لتلك الشجرة يسمى عبيد الله المهدى، وهذا الأمر ليس اسما، أو هو اسم لا يدل على شخص بعينه، فكلنا عباد الله أو عبيدات الله إذا شئت، وكلنا مهديون إن شاء الله هدايتنا، وكل مسلم هو فى الحقيقة عبد الله المهدى، والله صادق الرواة عندما قالوا إن المعز لدين الله، أبا تميم بعد، راح حفاة الفاطميين فى المغرب وأولهم فى مصر، عندما أحس ذلك الثامن فى نسبه دعاتهم إلى مجلسه فى القاهرة، وخر عليهم دنانير، وقال «هذا نسبى، وهو السيف بيمينه» وقال وهذا حسبى».

وهذه الدنانير التى نثرها على الناس إنما هى من مالنا أعطاها بغير حق، ومنها أيضا الدنانير سيفه فهو من مالنا مسروق، فالمعز على ذلك بكل ما ملك «بدنانيره وسيوفه إنما هو صنعة يدنا وفضلة مالنا» فكيف والله ننسب إليه أو تنسب مصر إليه فتقول هذه مصر الفاطمية؟

وبعد، لما عاشت مصر على الله وعلى أهلها حتى تنسب مرة إلى جلف قائم تركى هو أحمد بن طولون، وإلى جلف عارئ على الملك والسيادة هو محمد بن طغج الإخشيد، وإلى دعى ينتسب إلى السيف والدنانير، إنما مصر العظيمة فى العصور الإسلامية صنعة الله سبحانه إذ أكرمها بالإسلام، ومصر بعد ذلك صياغة أهلها الذين فهموا الإسلام واستوعبوه وأخلصوا له وجعلوا بلادهم لاعدة من أكبر قواعده ومثالا له من تصاريف القدر وغوائل الزمان.

وأقول بعد ذلك إن مصر الإسلامية من صنع أهل مصر الذين أخرجوا تجاربهم الحضارى الذى صنعت أجيالهم فى جاهلية تاريخهم (أى قبل الإسلام) وصاغوه صياغة إسلامية، فأنشأوا عبارة إسلامية مصرية وعلوما مصرية إسلامية فى اللغة والفقه والعقيدة، وأضافوا إلى البعد الحضارى الإسلامى كله بعدا جديدا راجعا مع الزمن القديم أربعة آلاف سنة، وانظر والله إلى جامع أحمد بن طولون، وهو أقدم أثر معمارى مصرى إسلامى بل لنا كاملا، ألا ترى فيه رصانة المعمارى المصرى الذى أنشأ الأهرامات، وجلال العلم الهندسى المصرى الذى صنع السلالم؟

وبعد هذا أسألك : من صنع من ؟ ابن طولون والإخشيد والعز الفاطمي ومن بعدهم صنعوا مصر . أم مصر هي التي صنعتهم ؟ ومصر بدون أحمد بن طولون والإخشيد هي مصر . أما ابن طولون والإخشيد بدون مصر . فهما صفران في غاية الضآلة حتى لا نزال نحن .

بل صلاح الدين الأيوبي نفسه بعلائه وعلو مقامه وتقديرنا له وعظيم ما قام به في سبيل الإسلام . ماذا كان يكون لولا أنه انتسب إلينا وقام في بلادنا ؟ ولولا مصر برجالها وأموالها وخيرها وبركاتها ما كان ليستطيع القيام بما قام به . ولا لا الأكراد كانوا مل، الدنيا . وفي بلاد العراق والشام كانت منهم الوفاء . فإذا هذا وحده أصبح بطل الإسلام ورمز فتوحاته ومكارم أخلاقه ؟

الجواب واضح . ولقد سبق صلاح الدين رجل من أبطال الإسلام لا يقل عن صلاح الدين فحولة أو عبقرية أو إقداما . وهو بن الدين محمود . ولقد كان بطلا مجاهدا مناضلا إسلاميا حقا وصرع قوى الصليبيين في بلاد الوصل والشام . وقضى عمره كله على جبهات الجهاد أو في المساجد ساعيا في إنقاذ الإسلام . وهو الذي انتزع بالقطيعة وإقامة الإسلام أن العنصر القرغزي لن يقتلع إلا من مصر . فمضى إلى مصر إلى جبهة الجهاد . فإذا صنعها واكتملت عدة النصر أدركته المنية . وبقي صلاح الدين فأتم العمل وكسر ظهر الصليبيين في معركة حطين . وصار بعد قليل من الذي قهر الصليبيين في سهل حطين .

إذن فكيف ندرس تاريخ مصر الإسلامية ؟

بدراسة تاريخ الشعب المصري نفسه بعد أن أسلم واستعرب . ولقد أسلم شعب مصر طواعية . لما استحثه على الإسلام أحد . إنما شعب مصر بطاقته وموروثه الحضاري وأبى الهدى والنور والحضارة في الإسلام فدخل فيه . والمصري منذ قامت له دولة كان باحثا عن الهدى ودين الحق . وكان يرى الله يوم ظنه ويرجو له بأقوى ما عرفته عياناً وهو الشمس . وواحد من القراعنة وهو أخناتون كان موحدا عبد الله سبحانه .

وعندما دخلت المسيحية مصر دخل فيها أهل مصر . ولكن القساوسة والرهبان ورجال دولة الروم أفسدوا على المصري أمان فيه وسلام نفسه بما ابتدعوا من مذاهب يضل فيها العقل ويجوه الرشاد . حتى إذا أهل العرب بالإسلام على مصر . كان بطارك الإسكندرية وهو بنيامين أو أبو ميامين مجرولا مختفيا يترقب . فأتته العرب . وظهر وعاد إلى كرسيه . ورأت أغلبية المصريين أن الإسلام دين الحق الواضح الأبلج فدخلوا فيه عن نفس راضية . وأحبوا العرب الأول لأنهم وجدوا فيهم سماحة ربوا ومكارم أخلاق . فدخلوا فيهم وأصبحوا عربا . ولقد أحد العرب من أم الإسلام جنايا موالي . فهناك موالي من الفرس وموالي من الترك وموالي من أهل المغرب وموالي من أهل الأندلس إلا أهل مصر . لما دخل أحد منهم في ولاء قبيلة عربية . ولقد تسري العرب من بنات البلاد المفتوحة جميعاً إلا مصر . لما تسرى أحد من العرب من بنات مصر . إلا رسول الله ﷺ . أو هذا من الله سبحانه تكريم لأهل مصر وتشريف . ولم يدخل المصريون في العرب إلا عربا أبدادا . ولقد ذكر السيوطي في « حسن المحاضرة » نقلا عن الحسن بن زولاق أن مصر ذكرت في القرآن الكريم تصريحا وتلميحا ثمانٍ وعشرين مرة ... ؟

ثم يقولون مصر الفرعونية ومصر الإخشيدية ومصر الأيوبية ، بل - بالكفار - مصر المملوكية ؟

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا)

واقرب الأمر إلى فكرك فأسألك . هل يجوز لك أن تقول إن مصر هذه الخرة المباركة الطاهرة التي تعيش فيها اليوم من صنع محمد

على وأولاده ؟

وهل يصح في فهمك أن تقول : مصر الفاطمية العبيدية الشيعية . أو مصر الإخشيدية . أو مصر الفرعونية ؟ ألا ترى أن في ذلك مهانة لمصر وإساءة ؟

فهذا من ذاك

والصحيح أن تقول : مصر التي صنعها وحررها شعب مصر بقيادة أبنائها الأبرار الذين عاشوا وماتوا عبيد ومصطفى كامل ومحمد فريد ومن بعدهم رجال عبد الناصر وأنور السادات .

ومع كل من هؤلاء من أيدوه من أبناء مصر ونصروه بإحسان وإيثار في ميادين العلوم والفنون والحضارة والمعرفة . فكل علم من هؤلاء يقوم على رأس جيل من بناة مصر .

وإذا كان هؤلاء هم الذين بنوا مصر في أيامنا هذه . فإنك تستطيع أن تقول إن كل عصور مصر الإسلامية بنتها أجيال المصريين بقودهم وعلمائهم . ولكل جيل زعيم أو رب أسرة . لأن المصري كما قلنا يحتاج بطبعه إلى زعيم قائد وأب ليمضي معه ويواصل سيرة التاريخ

وتلك هي القراءة الصحيحة لتاريخ مصر . ولقد اتضح هذا في ذهنك لأني ضربت لك المثل بعصرك الذي تعيش فيه لأدركه .

فارجع مع الزمان القهقرى من مولد مصر الإسلامية العربية لأدرى أني أدعوك إلى فهم تاريخ مصر صدقا وعدلا .

لندع عواريس الولاة والحكام والسلاطين جانبا إذن . لأن هؤلاء لم يصنعوا تاريخ مصر الإسلامية . ولأنهم سادوها فقط . إنما الذين صنعوها وسادوها هم المصريون أهل مصر .

إن مراجع تاريخ مصر الإسلامية وافرة . حتى إن أماميا تماما مختارات . لأن أهل مصر - إحساسا منهم بقدر بلدهم - كتبوا في تاريخها وحضارتها كما لم يكتب أهل بلد عن بلدهم .

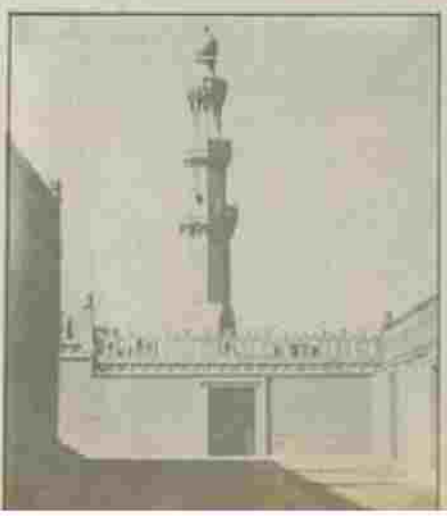

ولكني أدعوك أن ترجع معي كتابا محضرا في تاريخ مصر والعلم فيها ألفه جلال الدين السيوطي . وهو شاهد واحد من شواهد بناة مصر من أهل العلم . وقد توفي سنة ٩١١ هجرية تغطفا وراءه نحو الإحاطة كتاب في كل علم من علوم الإسلام . فهو نفسه مدرسة بل جامعة . فما بالك وفي تاريخ العلم في مصر عشرات مثله ؟ وما بالك ومن بين أبناء مصر الثمان وضع كل منهم معجما للغة العربية لا تفيض منه إلا المجامع العلمية الحافلة . أما المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس ، وابن منظور صاحب لسان العرب . وكل من المعجمين جمع قارة ؟ !

في حسن المحاضرة يتبع جلال الدين السيوطي أجيال العلماء في تاريخ مصر الإسلامية . وفي كتاب آخر ألفه واحد من أبناء مصر هو أبو العباس يوسف بن عمر بن مزدي ، يروي ذلك الرجل تاريخ مصر السياسي . فإذا قرأته قرأته قراءة متأنية أن الذين صنعوا تاريخ مصر السياسي هم المصريون فقط .

وبدأ بحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة

بدأ السيوطي بالكلام عمن حملوا علوم الإسلام إلى مصر من الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين . فمثلا عن عالم مصري هو محمد بن الربيع الجيزي ، وهو ابن الربيع الجيزي صاحب الإمام الشافعي ، وزاد عليهم من قالت ابن الربيع الجيزي ذكره .

ولقد أحصى السيوطي في هذا الفصل غير مائة وخمسين صحابيا . وفي الرقم ولا شك مبالغة . فقد دلت الأبحاث على أن أهل كل بلد إسلامي تراودوا للشريف بقدمهم . فقالوا إن ثلاثة وثلاثة من الصحابة نزلوا بقدمهم أو أدركهم الموت فيه . فلا اعتراض بعضهم أحياء صحابة لم يوجدوا قط . وهذا منزع غير سليم . ولكن الدافع إليه هو الذي وحب الرسول صلوات الله عليه وصحابته . وهو منزع كريم يدل على عاطفة وإن لم يكن علما .

ولكنك تستطيع أن تقول وأنت آمن . إن الصحابة الذين دخلوا مصر كثيرون . وأكثر منهم التابعون رضوان الله على هؤلاء وأولئك . وإذا كان الصحابة والتابعون هم القاعدة الأولى لعلوم الإسلام . استطعت القول بأن علوم الإسلام في مصر قامت على القاعدة السليمة . وأنها بدأت تاريخها الحضاري في ظل الإسلام من البداية الصحيحة .

وبعد أن يفرغ السيوطي من الصحابة والتابعين وتابعيهم يضع عنوانا هو : « طبقة تلي هذه » يذكر تحته علماء أجلاء وفدوا على مصر . ومعظم هؤلاء جم انتهم بقعة المصري . واقراد بذلك أنهم عرب أصبحوا مصريين . والكثيرون من هؤلاء لم يستقروا في الفسطاط بل في بلاد وقرى مصرية أخرى مثل : سعيد بن كثير الأدم المصري أبو عثمان . مات بأخميم سنة ٢٠٧ هجرية . وطلق ابن السمح بن شرحبيل المصري الاسكندراني . وعبد الله بن يحيى المعافري الوليدي . وهكذا

ومعظم هؤلاء وللفهم رجال الحديث الكبار : البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي وابن ماجه

ويحدثنا السيوطي بعد ذلك عن الأئمة المجتهدين الذين عاشوا في مصر أو ولدوا وماتوا فيها . أي أن مصر حظت بمكانة أخرى في بناء العلم الإسلامي . فأصبحت هي نفسها مركز إشعاع وتشريع إسلاميين . وهنا نقرأ أسماء نفر من أجلاء أهل العلم في تاريخ الإسلام كله . على سبيل المثال :

علي بن رباح اللخمي . وبالغ مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة . وبكر بن سوادة الجذامي ابن عامة المصري الفقيه مفتي مصر وأبو رجاء يزيد بن حبيب الأزدي المصري فقيه مصر وشيخها ومفتيها . وابن لهيعة عبد الله بن عقبة الحضرمي المصري قاضي مصر ومسندها . وأبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي المصري . وكان صاحب مذهب فقهي يعادل المذاهب الأربعة

الكبرى . وقد ولد بالقلشندة من قرى الدلتا سنة ٩٤ هجرية . وأبو محمد الخير عبد الله بن وهب بن مسلمة المصري الفهري . وعبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي المصري .

والإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس . وقد أقام في مصر السنوات العشر الأخيرة من عمره ، وفيها وضع مذهبه المعروف .

وظل يد أرقى الأعلام بأصل العلم في مصر . وأصبحت مصر أحد كبار مراكزه . ثم أصبحت مركزه الأكبر ابتداء من العصر الأيوبي . بعد تحويل الأزهر من مركز للدعوة الشيعية الإسماعيلية إلى قاعدة العلم الصحيح ومركز السنة والجماعة .

وكانت مراكز العلم الكبرى في عالم الإسلام كثيرة ، ولكن واحدا منها لم يبلغ ما بلغه الأزهر من القوة العلمية ، حتى أصبح قاعدة الفقه والعلوم الإسلامية الكبرى في عالم الإسلام .

ومرد ذلك كما هو واضح يرجع إلى وجوده في مصر . فقد زخر الأزهر بالعلم والعلماء ، والسمت بجلالاته فيها ، حتى شملت الفلك والطب وكل المعارف الإسلامية والإنسانية في العالم إلى يومنا هذا . بل بلغ الأمر أن العالم في دنيا الإسلام لم يعد يعترف له بالتقدم إلا إذا كان أزهريا .

وهذا هو طابع مصر الخلودي على مر العصور . فقد استعادت مصر في الأزهر ما كان لها من الصدارة في العلم في العصور القديمة .

وعندما نقرأ تاريخ الخوف ننتبه تماما أن شيوخ الأزهر هم سلاطين مصر فعلا . أما سلاطين المماليك ومن جاء بعدهم من باشوات الترك وبكوات المماليك فكانوا إلى جانب الشيوخ زبدا تذهب جفاء .

كان الأزهر مركز علم عالميا ، فقصده العلماء من أقاصي الدنيا . ولكن شيوخ المصريين بسبب تواضعهم وعدم إلمامهم لفنون الدعوة لأنفسهم لم يكسبوا من الأزهر ما كسب الفقهاء غير المصريين . وتتضح هذه الظاهرة في العصر المملوكي عندما كان السلاطين أجانب جهلاء يستطيع أصحاب الدعاء من أجانب العلماء أن يسيطروا على عقولهم كما يشاءون من التقرب إلى السلاطين والفوز برضاهم وعطاياهم .

وهؤلاء الذين فازوا بالشهرة والمال من دون المصريين هم الدعاة الذين مهروا في التجارة وجعلوا العلم أيضا تجارة . والمصري – لأمر ما – لم يبلغ في التجارة رتبا يتصل بها من الدعابة للنفس وتروض البضاعة : علمية وغير علمية . وتسويقها .

لم يعرف المصري التجارة بالعلم . ولكن غيره من الشيوخ الوافدين عرفوا ذلك الفن وتفوقوا على المصريين فيه .

حتى لقد كان العالم غير المصري يفد على مصر فيطمع في أن ينول كبار الوظائف من دون المصريين . وكان المصري قد سلم سيادة الأجانب على أرضه فانطوى على نفسه في عقده ولواء . وانكب حول شيوخه وزملاء الأمور تجري في أعنتها ، وعزت عليه نفسه أن يذلها لغير الله .

انطوى على نفسه وتلك كانت خطيئته الكبرى في العصور الإسلامية . لقد نسي نفسه ولكنه لم ينس وطنه . استمسك بأرضه يبذوه وأسلافه ، ولكنه لم يلتفت إلى المال ، واحتاج إلى زعيم والد ليضعه في مكانه . هو يحتاج دائما إلى زعيم والد ، لأنه دائما عضو في أسرة .

ومن غرائب ما نقرأ أن ابن خلدون ، وقد نسب به بلاد الإسلام كلها ولم يجد الأمان إلا في مصر ، لم يطمع بالأمان بل بمنصب يقلب الرياسة على علماء مصر . وابن خلدون مفرح وفيلسوف عظيم .

أحمد عرابي

محمد فريد

ولكنه لم يكن فقط لذا الفقهاء مصر في ميدان الفقه . ولم يحمد الله أن عينه السلطان برقوق شيخا للمدرسة الحديث وقاضيا للقضاء المالكية . بل استكثر أن تؤخذ منه الولاية وتعطى لغيره من أبناء مصر ، وقال في ترجمة حياته « التعريف بابن خلدون » كلاما لا يسر في حق علماء مصر .

وهناك مثل واضح عندنا يدلك على عزوف علماء مصر عن كسب المال أو التقرب للسلطان بالعلم والاشتغال بالسياسة في وقت كانت السياسة فيه كلها عطايا وظنونا ، بينما دعا غيرهم لنفسه دعوة واسعة وكسب الشهرة والمال .

فقد وفد على مصر حوالي سنة ٦٤٠ هجرية شيخ كبير من شيوخ الشام يسمى عز الدين بن عبد السلام ، وكان عالما عظيما فعلا . شهد له الناس جميعا بالعبقرية في العلم والفقه . ولكنه كان يتداخل سلاطين المماليك محاسبا لهم أحيانا ومنكرا عليهم في بعض الأحيان . وفي كل مرة يدعو لنفسه دعوة عظيمة . وعلى رغم إنكار الفقهاء ، لما كان رجال الصوفية يزعمونه من أن العلم يأتيهم من الله فطرة في الصدور دون درس أو مذاكرة . فقد لبس عز الدين بن عبد السلام خرقة التصوف من شهاب الدين السهروردي ، وقد ناوله أبو الحسن الشاذلي لناء بناء . فقال إنه ليس على وجه الأرض مجلس في الفقه أنبهي من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أنبهي من مجلس الشيخ تقي الدين عبد العظيم ، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أنبهي من مجلسك . (أي مجلس الشاذلي) .

في نفس العصر عاش مصري لا يقل عن عز الدين بن عبد السلام علما هو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد الملقب بابن دقيق العيد . وهذا اللقب أطلقه عليه الملاحون لأن لهذه كانت تطيقه لاصعة الناس مثل دقيق العيد . وقد درس ابن دقيق العيد على عز الدين بن عبد السلام كما درس على غيره . وكان الرجل أعلم أهل زمانه بالفقه فعلا . واعترف له الناس بأنه وصل إلى درجة الاجتهاد ، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه وشدت إليه الرحال . وقال فيه الحافظ فتح الدين بن سيد الناس لم أر مثله فيمن رأيت . ولا حملت عن أجل منه فيمن رويت . . .

ولكن الشيخ ابن دقيق العيد لم يعرف عن الدعوة لنفسه ، ولم يداخل السلاطين لا راغبا ولا منكرا ، وكان معظم أيامه ملازما قريته ، فرضي ، منعدا عن نفر من الفقهاء كانوا يشعرون فيه ، ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام أستاذه ! قال فتح الدين بن سيد الناس عن ابن دقيق العيد : « ولم يزل حافظا للسانه ، مقبلا على شانه ، موقفا نفسه على العلوم وحفرها ، ولو شاء العاد أن يحصر كلامه لما استطاع حصرها ، مع ذلك فقه بالتجريد لخلق ، وبكرامات الصالحين لخلق . . . »

فهذان عالمان جليلان متعادلان في العلم ، شاعي متداخل كثير الكلام والحركة ومداخلة أهل السلطان ، ومصري منصرف على العلم منصرف إلى التدريس وحده على علو درجته في زمانه ، فكان أحدهما الشهرة الذائعة حتى لقب بشيخ الإسلام ، وألقم الثاني في قريته معظم وقته بعد أن بلغ أعلى الدرجات ، وذلك حتى لا يتلبس بشيء من أمور السياسة والسلاطين .

وهذه مصر في تلك العصور ، كانت في يدها خزائن الأرض ، ولكنها نسيت نفسها .

وقد قلت آنفا إن المصريين كانت لهم اليد الطولى في كسب معظم انتصارات الإسلام العسكرية ، ولكن المؤرخين – ومعظمهم كانوا ديوانيين يكتبون للسلاطين – لم يعترفوا لأهل مصر بما قاموا به في ميادين الجهاد .

ولكننا نحن اليوم بعد درس طويل ، نستطيع القول أن الذين شجعوا صلاح الدين الأيوبي على ملاقاة الصليبيين في حطين سنة ١١٨٧ كانوا المصريين . فقد خرج المتطوعون منهم للوفاة إلى فلسطين لمحاربة الصليبيين ، وكان معهم عدد كبير كذلك من المجاهدين المتطوعين من أهل الشام ، ولكن المصريين كانوا أوفر عددا .

وهؤلاء المصريون هم الذين نزلوا بخطين للدفاع وحدوا أن الصليبيين يتجمعون فيها استعدادا للهجوم على أرض الإسلام ، وبدأ المصريون مناوشة الصليبيين من طلوع الشمس ، وحضروهم حضرا شديدا ، وكان اليوم حارا ، والصليبيون مدرعون بالحديد ، فاشتد عليهم الحر واشتد بهم العطش ، فزادت جرأة المصريين عليهم ودخلوا عليهم المعسكر وبدأ القتال ، واستشهد من المجاهدين المصريين مئات ، ولكنهم كذلك قتلوا من الصليبيين مئات .

وهنا أدرك صلاح الدين بعبقريته أن الفرصة قد سنحت فسار بعسكره وقواده فدخلوا بهم حطين ساعة الظهر ، أي والحر في أقصاه ، وانقضوا على الصليبيين ، فما هي إلا ساعات حتى كان قد كسر ظهرهم ، وكان النصر العظيم .

هكذا كانت بداية النصر الحقيق على أيدي المتطوعين والمجاهدين المصريين ، وكان النصر النهائي لصلاح الدين .

ولكن المؤرخين الرسميين نسوا المصريين كلهم لصلاح الدين ورجاله وعللوا ذلك بحدث في موقعة عين جالوت .

وما أكثر انتصارات مصر التي أغفلها المؤرخون .

لأن المصري يعمل وهو صامت ، فيفور بالأمر والشهرة والثروات غيره من دونه . ومن هنا كان من الحق أن نقول

لقد جعل الله بيت المصري وسط روض غني مستمر على ضفاف نهر الحياة ، وفتح خزائن الأرض ، فأنفق كيف يطعم الناس ، ونسي نفسه !